

اسم المادة: سورة الفجر

من سلسلة: تفسير جزء عمّ

لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم

حياة

Way2allah.com

way2allahcom

إنتاج فريق التفريغ بشبكة الطريق إلى الله



اسم المادة: سورة الفجر
من سلسلة: تفسير جزء عمّ
لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هنستكمل بإذن الله –عزَّ وجلّ– تفسير سور من جزء عم. إن شاء الله –عزَّ وجلّ– بإذن الله –عزَّ وجلّ– نأخذ اليوم تفسير سورة الفجر.

يقول الله –عزَّ وجلّ– في هذه السورة العظيمة، بسم الله الرحمن الرحيم: "وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ" الفجر:١-٥، ثم يقول الله –عزَّ وجلّ–: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ" الفجر:٦.

هذه السورة من ضمن جزء عمّ، وأغلب جزء عمّ زي ما اتكلمنا قبل كدا في المقدمة، سور مكية، آياته قصار، الأغلب بيتكلم عن مواضيع معينة من معرفة الله –سبحانه وتعالى– والدار الآخرة، وإهلاكه الظالمين، وقدرة الله –عزَّ وجلّ– على البعث.

السورة بدأت بقسم، واو القسم، "وَالْفَجْرِ"، على خلاف سورة البلد اللي، لَا أُقْسِمُ، واتكلمنا في لَا أُقْسِمُ قبل كدا والخلاف فيها، لكن ده قسم معتبر، أو مفيش فيه خلاف يعني على عكس التاني، وإن كان جمهور المفسرين قال في لا أقسم زي ماقلنا المرة اللي فاتت إنه: أقسم.

هنا: "وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ" دايما الأقسام في القرآن إما إن يبقى متفق على المعنى بتاعها، يعني القسم واضح ربنا بيقسم بإيه، أو بيحدث خلاف بين المفسرين، القسم ده إيه؟ أسباب الخلاف ما بين المفسرين في القسم إيه هو القسم؟ يعني مثلا قول الله –عزَّ وجلّ–: "والنازعات"، "والصافات"، "المرسلات"، "العاديات" دي من الآيات اللي فيها خلاف بين المفسرين، هي إيه نازعات؟ إيه المقصود بالنازعات؟ هل الملائكة ولا الرمح اللي بتنزع؟ ولا أيّا كان. العاديات هل هي الخيل؟ هل هي الإبل؟ المرسلات: الملائكة ولا الرياح؟ الصافات: الملائكة ولا المؤمنين؟

من أسباب الخلاف في اللي أنا ذكرتهم دول، إن ربنا بيُقسِم بالصفة مش الموصوف. يعني مقالش والملائكة الصافات لا قال: والصافات. الصافات دي الوصف بتاعها، أقسم الله –عزَّ وجلّ– بالوصف. ومقالش إيه بقى الموصوف، ده بيدي تنوع، أو بيبقي الغرض التركيز على هذه الصفة، زي النازعات، هل المقصود الملائكة! ربنا مقالش الملائكة النازعات، قال: والنازعات. على طول، "وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا".

يبقى ده من أسباب الخلاف إن ربنا يذكر الصفة ومايذكرش إيه اللي موصوف بالصفة دي.

أو إن يُذْكر حاجة زي الفجر، معروف الفجر، لكن تحديد إيه فجر بالظبط ده اللي فيه خلاف، ذي وَلَيَالٍ عَشْرٍ، ليالٍ عشر؛ عشر ليالي، إيه بقى عشر ليالي؟ عشر ليالي بتوع رمضان ولا بتوع ذي الحجة ولا بتوع أول محرم، زي ما هنشوف الخلاف دلوقتي اللي هيجيلنا.

يبقى أيضا من أسباب خلاف المفسرين إن ربنا يذكر جنس شيء لكن تحديده إيه بالظبط، يعني الفجر طب فيه فجر معين ولا أي فجر.

أو من أسباب الخلاف في القسم إن ربنا يقسم بحاجة واضحة بقى معروفة لكن يختلفوا هل هو ده المقصد من القسم ولا مراد حاجة من وراء ذكر ذلك؟ زي قول الله -عزَّ وجلّ-: "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" التين معروف، لكن هل ربنا -سبحانه وتعالى- يريد القسم بالتين ولا بأماكن اللي بينبت فيها التين والزيتون؟ أرض الشام مثلا وفلسطين، وإن ده مهبط الوحي، والدلالة على ذلك المعطوف عليه من القسم: "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ" مكان الوحي على سيدنا موسى في أرض سيناء، "وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ"، مكان الوحي على النبي -صلى الله عليه وسلم- في مكة، يبقى الأول مكان وحي سيدنا إبراهيم في الشام أو فلسطين. يبقى ده من أسباب الخلاف بين المفسرين في القَسَم، إما إن ربنا يذكر الصفة ومايذكرش الموصوف، أو تحديد جنس المقسم به، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، إيه بالظبط؟ أو إن شيء يراد به غير المتبادر للذهن، مش المقصود التين نفسه، المكان اللي بينبت فيه التين.

فقال الله -عزَّ وجلّ-: "وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ" اختلف المفسرين، واضح إن ده قسم بالزمان، الفجر والليال العشر والليل إذا يسر قسم بالزمان. الخلاف في الشفع والوتر، هل أيضا بيدخل في الزمان ولا له معنى تاني؟ إنما التلات أقسام واضح، الأول والتاني والرابع، الفجر والليال العشر والليل إذا يسر ده زمن، لكن هل ربنا -سبحانه وتعالى- لما أقسم المقصد من القسم ده مطلق الزمان؟ اللي قال مطلق الزمان وإن أي فجر قال القسم هنا الدلالة فيه على قدرة الله اللي بيظهر الفجر بعد طول الليل واللي بيجعل فيه تتابع في الزمان، فكما أن من سنة الله -عزَّ وجلّ- التتابع بين الليل والنهار وقدرة الله المطلقة، كذلك فيه سنة الله في التداول بين المؤمنين والكافرين، دول بينتصروا أحيانا وينهزموا أحيانا، "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" آل عمران:١٤٠، فكما أن هناك مداولة بين الليل والنهار كذلك هناك مداولة بين الحق والباطل.

بعض المفسرين قال لا، المقصد فجر معين، تحديد فجر معين، والفجر ده فجر يوم النحر، وإن الليالي العشر أول عشرة أيام من ذي الحجة، وإن المقصد هنا هذه المواسم والطاعات التي ما من أيام العمل الصالح أحب فيها إلى الله من هذه الأيام، وإن المقصد قيمة العمل الصالح في هذه الأيام. وبعضهم قال إن الفجر أول فجر في السنة في شهر المحرم، وإن الليالي العشر أول عشرة أيام من محرم، طب ليه اللي اختار القول دا؟ عارفين اختاره ليه؟ قال إن المقصد ربنا بيقسم بالزمان ودا رأي الشيخ حبنكه الميداني وهو من المعاصرين، قال إن ربنا بيقسم بالزمان مش المقصد قيمة العبادة في الزمان، غالب المفسرين قالوا الزمان ده الغرض منه إيه؟ قيمة الطاعة في هذ الزمان، إن هذه أزمنة مشرفة، زي ما السورة اللي بعدها، أقسم بأماكن مشرفة، زي البلد مكة، السورة دي بيقسم بالأزمان المشرفة، الأزمان التي شرفها الله -عزَّ وجلّ-، ده اللي قال المقصد إيه؟ الزمان، الليالي العشر ذي الحجة أو عشر رمضان. إنما اللي قال عشر محرم قصده هذه أزمنة أهلك الله فيها الظالمين، فالليالي العشر لو قلنا الفجر، فجر عاشوراء، أو فجر أول محرم والعشر ليالي، يبقى كان إهلاك الظالمين، أو إهلاك فرعون كان في يوم عاشوراء، وقال إن الفجر ده غالب إهلاك الظالمين بيبقى في هذا الوقت، وحاول يستقصي إهلاك قوم لوط وقوم عاد وقوم ثمود، وإن المقصد من الفجر والليالي العشر والشفع والوتر والليل إذا يسر، حتى قال إن الشفع والوتر -هنتكلم في الخلاف فيها- قال إن الشفع والوتر المقصود بيها سبع ليال وثمانية أيام، السبعة وتر والتمانية شفع، فقال إن الشفع والوتر دول إهلاك مين؟ الريح الصرصرة اللي أرسلت على عاد، "سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ" الحاقة:٧،٨، فقال إن المقصد أزمنة إهلاك الظالمين، وبيدل على ده قول الله -عزَّ وجلّ- "فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ"

يبقى إذا عندنا تلات أغراض من القسم بالزمان كدا ذكرها المفسرون:

الغرض الأول: قدرة الله المطلقة على المداولة بين الليل والنهار والمداولة بين الأزمنة، وأن سنة الله -عزَّ وجلّ- جارية في المداولة بين الليل والنهار والفجر والليل وإن فيه تعاقب، والتعاقب ده زي ما فيه تعاقب بين الليل والنهار فيه تعاقب بين الحق والباطل. ده الغرض الأول من القسم بهذا الزمان.

الغرض التاني: ذكر الأزمنة المشرفة التي يستحب فيها فعل الطاعات ويأنس إليها المؤمن وينتظرها المؤمن بشوق حتى يبذل فيها الطاعات ليُرضى الله – عزَّ وجلّ- أو ليَرضى الله -عزَّ وجلّ- عنه.

الغرض التالت: ذكر الأزمنة التي أهلك الله -عزَّ وجلّ- فيها الظالمين.

هنحاول طبعا كل غرض من دول، إيه علاقته بجواب القسم أو إيه علاقاته ببقية السورة.

"وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ" جمهور المفسرين وبعضهم اعتبر إن ده القول الراجح، إن الليالي العشر إن العشر ذي الحجة، جمهور المفسرين، ورد أثر ضعيف إن العشر دول عشر إيه؟ ذي الحجة، زي ما قولنا فيه ناس قالت عشر الأواخر من رمضان، وفي ناس قالت العشر الأوائل من محرم، وفيه ناس قالت أيضا من المعاصرين، قالوا العشر الأواسط، ودا كان قول غريب جدا بس بيقول إن الفجر فيه النهار وإن العشر الأواسط بيكون فيها البدر أشبه مكتمل وفيه ضوء يعني حاول إيه إن أيضا الليالي فيها ضوء يعني.

"وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ" الشفع والوتر أيضا فيها أقوال كتير، إما الشفع والوتر المقصد بيها كل طاعة شفع وكل طاعة وتر، زي تشبيه السلف وضربوا مثال بذلك، صلاة الفجر شفع، وصلاة المغرب إيه؟ وتر، ودي في أول النهار ودي في آخر النهار وبداية الليل، فكأن الإنسان، يفعل كل أنواع الطاعات.

وقيل الشفع والوتر، الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، يوم عرفة تسعة، والشفع يوم عشرة.

وقيل الشفع والوتر، الشفع كل المخلوقات، "وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ" الذاريات:٤٩، والوتر هو الله -عزَّ وجلّ- "إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ"[1] الله -عزَّ وجلّ- واحد -سبحانه وتعالى-، أحد -سبحانه وتعالى- يحب الوتر وأسماؤه وتر. فقيل الشفع المخلوقات والوتر الملك -سبحانه وتعالى-. "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ" مشهد الليل والمؤمن بيسري فيه بفعل الطاعات.

لو قلنا الغرض من الأزمنة دي أنها أزمنة مشرفة في الطاعات أيًّا كانت، سواء العشر الأول من ذي الحجة أو العشر الأواخر من رمضان، وإن الشفع والوتر المقصد بيها التنوع في الطاعات، ملخص بقى الكلام، إيه الغرض بقى من الأزمنة دي؟

المؤمن يطمئن بطاعة الله، لا يطمئن بالأسباب، ده ملخص للسورة، المؤمن يطمئن بطاعة الله، فالمؤمن بيجتهد في الطاعة طول السنة، لكن بيجي أزمنة معينة يخصها المؤمن بالطاعة لأن الله شرفها، هذه الأزمنة المخصوصة بتكون زاد للمؤمن طول السنة، يعني مثلا تلاقي واحد يقولك إيه: أنا عشان أعرف أشتغل طول السنة كويس لازم أخد عشر أيام مصيف، لازم أخد راحة فترة، ده بيبقى زاد ليه طول السنة، كذلك المؤمن يحتاج إلى أوقات أن يتفرغ للطاعة وللذكر حتى يكون هذا الذكر وهذه الطاعة حصن له وزاد له طول السنة.

زي ما بيروى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- سواء مرفوع أو موقوف على أبي هريرة: "الشتاءُ ربيعُ المؤمِنِ" الناس بتبص للشتاء بمنظر والمؤمن بينظر إلى الشتاء بمنظر تاني تماما مختلف، الشتاء بالنسبة للمؤمن ربيع، ليه؟ "طالَ ليلُهُ فقامَهُ وقصُرَ نهارُه فصامَهُ" النهار قصير فبيصوم وليله طويل فبيصلي قيام.

[1] سنن الترمذي



المؤمن بينظر للأزمنة نظرة مختلفة عن الناس وبينظر للأمكنة نظرة مختلفة، سيدنا إبراهيم قال رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع، طب اللي بيروح يسافر مكان أو بياخد أهله في مكان، ده بيروح يسافر في مكان مليان زرع، سيدنا إبراهيم اختار هذا المكان ليه؟ اصطفاه الله له "عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ" إبراهيم:٣٧. المؤمن بيختار الزمان والمكان بنظرة ربانية مش بنظرة الناس، فهذه الأزمنة بالنسبة للمؤمن هي الزاد، هي زاد الطمأنينة "أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ" الرعد:٢٨.

إذًا من الناس من يطمئن بالطاعات ومن الناس من يطمئن بالأسباب.

فربنا ذكر أن الطاعة تبقى، وتزول الأسباب ويُقال في أخر السورة "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ" أي التي اطمأنت بالطاعات بصلاة الفجر فكانت في ذمة الله، وبالليالي العشر وبذلت الطاعات، وبأنواع الطاعات الشفع والوتر، وقامت الليل، وفعلت الطاعات في الليل "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ" لكن كل الأسباب الأخرى اللي ذكرت، زي ما هنشوف جات معانا التركيز على أسباب معينة، زالت وزال أهلها وزال ملاكها ولم تنفعهم شيء.

يبقى إذًا من المعاني الأساسية اللي في السورة، أن هناك من يطمئن بالطاعات، فيموت وتكون لحظة الموت له نداء يا أيتها النفس المطمئنة، وهناك اللي بيطمئن بالدنيا "إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا" يونس:٧، أي اطمأن بالدنيا، لم يعد يطمئن بالله، مطمئن بالدنيا، "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ –أي اطمأن بالخير لا بالله– وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ" الحج:١١

إذًا تبدأ السورة بزمان مليء بالطاعات، وإن الزمان ده المؤمن بينتظره، واجتهاد المؤمن في هذه الأزمنة بالطاعات هو اللي بيجعله دائما مطمئن بالله، ده الزاد اللي بيجعل المؤمن في حصن حصين من شياطين الإنس والجن طوال العام بسبب هذه الأزمنة. أزمنة تنزل فيها البركات، تنزل فيها الرحمات يستغلها المؤمن، "وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ" ومشهد الليل وهو بيمشي ويسري والمؤمن طوال الليل بيفعل الطاعات، ويذكر الله –عزَّ وجلّ– ويقوم الليل، وتتنزل عليه الرحمات، ودايما الليل مهبط الرحمات، والقيام دايما بالقرآن مرتبط بالليل، دايما فيه ارتباط ما بين القرآن والليل.

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ وقيل والليل إذا يسر إن فيه حد بيسري في الليل، مش بس الليل هو اللي بيسري، المؤمن بيسري في الليل، فالصلاة معراج المؤمن، وكان الإسراء للنبي –صلى الله عليه وسلم– بالليل "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ" "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى" الإسراء:١. إذًا الليل ده زمان سفر المؤمن، الليل الزمان الذي يعرج فيه المؤمن إلى الله –سبحانه وتعالى–.

بعد كدا ربنا بيقول: "هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ" أليست في هذه الأزمنة كفاية للمؤمن إنه ينهل منها من الطاعات؟ "هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ" ذي حجر يعني عقل، وهنتكلم في ليه ربنا قال هنا حجر وماقالش عقل أو لب، برغم إن الألفاظ التانية ذكرت في القرآن "أَفَلَا تَعْقِلُونَ" "أُولُو الْأَلْبَابِ" هنا قال لِّذِي حِجْرٍ يعني ربنا هنا بيقول أنه أقسم بهذه الأشياء، وأن العاقل هو الذي يتدبر في هذه الأزمنة، وأن العاقل هو الذي يشتغل هذه الأزمنة، يعني عكس الكلام ده، إن المجنون اللي بتمر عليه الأزمنة دي ولا يستغلها، يبقى إنسان مغبون، اللي بتمر عليه هذه الأزمنة ولا يفعل فيها الطاعات.

كيف يطمئن الإنسان في الدنيا، وتمر عليه الأزمنة بلا طاعة، كيف يعيش مطمئنا؟! إزاي يعني واحد يعدي عليه العشر الأواخر من رمضان بدون عبادة، والعشر الأوائل من ذي الحجة بدون عبادة، وعاشوراء بدون عبادة، تمر هذه المواسم بدون طاعات ثم يبحث عن الطمأنينة،



وأنَّى له! مستحيل، مستحيل يعيش في طمأنينة وهو لا يطيع، مستحيل. إزاي ميصليش الفجر في جماعة ويبحث عن الطمأنينة؟ "مَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فَهوَ في ذمَّةِ اللَّهِ"[٢] واحد صلى الفجر في جماعة يكون مطمئن إنه في ذمة الله، يحفظه الله –عزَّ وجلّ–.

فيقول الله –عزَّ وجلّ– أن في هذه الأزمنة عبرة لأهل الإيمان.

"هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ" الحجر معناه العقل، لكن هنا اتسمى حجر ليه؟ لإنه بيحجر الإنسان عن ارتكاب المحرمات. العقل أصلا، سواء العقل أو النُهى أو الحجر، كل دي أسماء للعقل ليه؟ لأن الوظيفة الأساسية للعقل، تمنعك، تعقلك يعني بتربطك، والنهي بتنهاك، والحجر بيحجرك، كل دي أسماء العقل بتمنعك عن فعل الحرام. يعني كأن الإنسان الأصل فيه إنه ظلوم جهول، الأصل في الإنسان إنه ظلوم وجهول، لو اتساب من غير عقل يَفْجُر في المعاصي ويظلم، لكن لازم يبقى عنده عقل يمنعه من ذلك، والعقل بتاعك عشان يشتغل صح، لازم طاعة ولازم عبادة، الامتناع عن المحرمات لازم له زاد من الطاعات.

تاني؛ الامتناع عن المحرمات لابد له زاد من الطاعات، لما ربنا بيقول "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" العنكبوت:٤٥، يبقى الطاعة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ" مريم:٥٩، أول لما أضاعوا الصلاة إيه اللي حصل؟ "وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ". يبقى لما الإنسان ميبقاش عنده زاد من الطاعات بيسقط في الشهوات وبيظلم. فهذه الأزمنة جعلها الله –عزَّ وجلّ– تذكرة، إن الإنسان تمر عليه الأزمنة دي فيجتهد في الطاعات، فلما يجتهد في الطاعات، يمتنع عن ظلم الناس. ودا من لطائف ذِكْر أحكام الصلاة في سورة البقرة، في وسط أحكام الطلاق، لما ربنا قال: "حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا" البقرة٢٣٨:٢٣٩، ذكر ربنا الحفاظ على صلاة العصر ودي بتبقى صعبة جدا للإنسان اللي بيعمل ويرجع يبقى وقت النوم أو الطعام، وذكر الصلاة في حال المسايفة حال الجري، فإن خفتم فرجالا أو ركبانا، أصعب حالتين في الصلاة؛ في حالة الاستقرار صلاة العصر، وفي حالة عدم الاستقرار الصلاة اللي وهو بيجري في حال المسايفة، دول ذُكِروا في وسط آيات الطلاق، الذي يستطيع أن يحافظ على الصلاة في هذه الأوقات يستطيع أن يعدل بين الناس حتى في أصعب الأزمات في الطلاق، ومايظلمش حد، لأن في الطلاق فيه غضب، وفيه انتقام للنفس، الإنسان بيغضب ويكون عنده حمية، فإزاي في اللحظات دي ميظلمش؟ إزاي ميظلمش حد، ميظلمش طليقته، ولا يظلم أهلها ولا هي تظلمه ولا أهلها يظلموه، بالحفاظ على الطاعات في هذه الأزمنة وفي هذه الأوقات.

فلذلك ربنا ذكر بعد كدا أنواع من الظلم، سواء قوم عاد، أو فرعون، أو ثمود، كل دول كانوا بيظلموا الناس وبيتجبروا، ربنا قال: "الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ" لأن مكنش عندهم الحفاظ على الطاعات.

"هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ" ثم يقول الله –عزَّ وجلّ– "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ" قال فريق من المفسرين، جواب القسم، يقسم الله بهذه الأزمنة، أي والله لأعذبن الظالمين، أو الله لأبعثن الظالمين ولأحاسبنهم، ثم ذكر أدلة على قدرة الله على إهلاك الظالمين.

– يبقى اللي قال الغرض من القَسَم تناوب الليل والنهار، مجرد قدرة الله على تداول الليل والنهار، قال علاقة ده بالآيات اللي بعد كدا، كما أن الله –عزَّ وجلّ– يداول بين الليل والنهار، كذلك هو قادر على إهلاك الظالمين، كما أنه يُذهب الليل، كذلك يُذهب الطغاة، وكما أنه يأتي بالفجر يأتي بالصالحين.

---

[٢] مختصر المقاصد – صححه الزرقاني



– واللي قال إن الغرض من الأزمنة دي ذكر الطاعات، قال إن هناك فريق من الناس يطمئن بالطاعات وهناك فريق من الناس يطمئن بالأسباب، وإن من أهم أنواع الزاد اللي بتعين على حرب الطغاة؛ العبادة والطاعة "وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" يونس:٨٧، دي أوامر في عهد الاستضعاف، إن الإنسان يحافظ عليها، "أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" يبقي في زمن الاستضعاف "وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً"، أي قِبل بعضها البعض، أو اجعلوها متوجهة للقبلة فتلتقوا ويسهل تلاقيكم، ولما تتقابلوا تصلوا، وتتذكروا بشريات الله ووعد الله "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" فكذلك من وسائل محاربة الطغاة؛ بذل الجهد في الطاعات.

– واللي قال إن المقصد من الأزمنة دي: أزمنة أهلك الله فيها الظالمين، فذكر الله –عزَّ وجلّ– نماذج لإهلاك الظالمين.

"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ" هنا هنجد حاجة غريبة جدا، إن ربنا ذكر تلات أقوام؛ عاد وثمود وفرعون، اختار أكتر تلاتة ظالمين جبارين، وهنجد إن مع كل واحد ربنا ذكر إيه؟ قيد معين. فمع عاد قال إيه؟ "ذَاتِ الْعِمَادِ" ومع ثمود قال: "جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ" ومع فرعون قال: "ذِي الْأَوْتَادِ"، يبقى "ذَاتِ الْعِمَادِ" و"جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ" و"ذِي الْأَوْتَادِ"، الأول نقول يعني إيه، وليه ربنا ذكر القيود دي؟ الغرض من ذكر هذه القيود؟

"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ" عاد معروفة، وأَلَمْ تَرَ، بالرغم أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يرى ذلك ولكن المؤمن حين يقرأ القرآن يوقن أن ذلك حدث، فكأنه يراه بعينه، فيصدق القرآن، يقينًا، كأنه رأى إهلاك عاد بعينيه.

"إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" اختلفوا في إرم، هل هي مدينة أو قبيلة أو المقصود بها القِدَم، ورجح كتير من المفسرين إنها قبيلة.

"ذَاتِ الْعِمَادِ" ذات العماد، قالوا ذات البنيان الشاهق، واللي قال إن هي قبيلة، قال: كان طولهم عظيم، كانت أجسامهم عظيمة، يعني كانوا بيرفعوا الصخر ويلقوه على أي عدو لهم بكل سهولة، فذات العماد بتدل على التمكن والقوة إما في أجسادهم أو على الأسباب التي كانت معهم، وأصحاب القصور المشيدة، يبقى ذات العماد، قوة في الأبدان، وقوة في الأسباب والقصور والبيوت. وقيل ذات العماد معناها: إن كانوا بيتنقلوا في أي مكان هما عايزينه ويجيبوا أعمدة ويبنوا أي بنيان، يعني كانوا بيتنقلوا في كل البلاد كيفما يشاؤون.

"الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ" قيل يخلق مثلها: أي القبيلة، قبيلة لم يخلق الله –عزَّ وجلّ– مثلها، أو مدينة، لم يبنى مثلها. يعني وصلوا قمة السيطرة على الأسباب، "وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا" يونس:٢٤، وصلوا للتمكن، عارف زي الغرب دلوقتي، الغرب بيشعر إنه وصل لقمة التمكن من الأسباب، لدرجة إنه عايز يكتشف سر الحياة وسر الموت ولن يستطيع، لكن هو بيظن في مرحلة من المراحل –والعياذ بالله– إنه خلاص سيطر على كل حاجة وإنه مش محتاج ربنا، لذلك يلحد كثير منهم. "الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ".

أما ثمود قال الله –عزَّ وجلّ– عنهم "الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ" الذين جابوا أي: قطعوا، جابوا الصخر بالواد: قطعوا الصخر في الأودية، يجوب الصحراء: أي يقطع الصحراء سيرا. جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، لما كان يعوذ بيت كان بينحت الصخر "وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ" في الشعراء، و"آمنين" في الحجر.

لما أهلك الله –عزَّ وجلّ– عاد بالريح، ثمود اعتقدوا إن اللي يحفظهم الصخر، عشان لو جالهم الإهلاك من الريح، عشان كدا في الحجر ربنا قال: "وتنحتون من الجبال بيوتا –إيه–آمنين"، أي آمنين من نوائب الدهر، هو معتقد، دايمًا الإنسان الساذج لما بيشوف حد ربنا أهلكه بحاجة، إن مثلا واحد ربنا أهلكه بالريح، فمعتقد إن أي وسيلة إهلاك لازم تبقى الريح، فيتحصن من الريح، ممكن تجيله من حتة تانية خالص، "فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ" الحشر:٢، ممكن تجيله من قلبه، من عقله، من جنوده، من ابنه، من زوجته، ممكن

تجيله من حيث لا يحتسب، مش لازم الإهلاك يبقى بنفس الطريقة، لذلك كان فيه تنويع في العذاب، مرة صيحة، مرة ريح، مرة خسف، مرة من السماء، مرة من الأرض، جنود ربنا –سبحانه وتعالى– "وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ" المدثر:٣١.

يبقى "ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ" قمة السيطرة على الأسباب والتحصن والحصون بالقصور والأجساد، قوة الأجساد.

ثمود، قمة التحصن بقى، مش بيبني قصور ده كان بيته جوه الجبل، بحيث لو جات ريح ميهلكش، فأهلكوا بالصيحة، مجتلوش بالريح، جاتله بالصيحة، "وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ"

"وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ" قالوا الأوتاد: إما الجنود، وكان فرعون بيتحصن بجنوده، ولا يتفرعن فرعون إلا بجنود، وفرعون ذي الأوتاد، فقالوا الوتد هنا المقصود بيه حاجة معنوية أي الجنود، والوتد اللي بيثبت الحاجة، يعني اللي ثبت ملك فرعون الجنود، "إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ" القصص:٨، لذلك مشتركين معه في الإثم. وقيل ذِي الْأَوْتَادِ التي كان يُعذب بها المخالفين له، كان بيجيب أربع أوتاد، اتنين ايدين واتنين رجلين، ويصلبه، ويعذبه، وفعل ذلك بامرأته، يبقى ذِي الْأَوْتَادِ: اللي كان بيخالفه كان بيعذبه. وقيل ذِي الْأَوْتَادِ المباني الشاهقة، قال بعض المعاصرين: دي الأهرام.

يبقى المقصد بذي الأوتاد: إما إنه كان بيتحصن بالجنود، أو بالمباني، أو بتعذيب المخالف، المهم إن ذات العماد والصخر بالواد وذي الأوتاد، التلاتة وسائل بيتحصنوا بها، ويتقووا بها ويطمئنوا بها، فأخبر الله –عزَّ وجلّ– أن هذه الأسباب لم تغنِ عنهم شيئا، لا ذات العماد عملت حاجة، ولا الصخر اللي بالواد عمل حاجة، ولا الأوتاد عملوا حاجة، بل أغرقه الله هو وأوتاده، وأهلكه هو وأوتاده، لذلك لما جه ربنا بيقول على قارون قال: "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ" القصص:٨١، داره معملتلوش حاجة ممنعتوش من حاجة "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ"، يعني منفعتوش بحاجة.

فإن ربنا يذكر هذه القيود، في السورة دي تحديدًا، اللي ذُكر فيها الفجر، اللي بيصليه في جماعة بيكون في ذمة الله، واللي ختمت بالطمأنينة "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ" أخبر الله أن هناك صنف من الناس يطمئن، بيطمئن بإيه؟ بيطمئن بذات العماد والصخر بالواد وبذي الأوتاد، لما الإنسان بيطمئن بالحجات دي بيبدأ يطغى، لإنه لما واحد معاه جنود كتير، زي فرعون لو قلنا الأوتاد هنا الجنود، معاه جنود كتير فمش خايف، مش خايف من حاجة، لو حصل أي مشكلة عنده جنود ومعاه فلوس ويتعالج ويعمل أي حاجة، فيبدأ يحس إحساس إنه مش محتاج ربنا –والعياذ بالله– اللي هو الاستغناء، هي بتبدأ كده سيطرة على الأسباب، يسيطر على الأسباب، يبدأ يشعر بنوع من الاستغناء، الاستغناء يؤدي إلى الطغيان، الطغيان يؤدي إلى الفساد، يبقى هي دي السلسلة. لذلك لما ربنا ذكر الأسباب دي قال إيه؟ "الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ" لما طغى جه الفساد، "فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ" طغى تجاوز الحدود، وأي مكان مفيش فيه حدود تُطبق وقواعد تُطبق هيبقى فيه فساد، وهينتشر الفساد. يبقى بيبدأ الإنسان الأول السيطرة على الأسباب، شعور بالاستغناء يؤدي إلى الطغيان يؤدي إلى انتشار الفساد.

المؤمن بيقطع السلسلة دي، إنه مهما كان معاه أسباب هو لا يطمئن إلا بالذكر "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ" الرعد:٢٨، مهما كان معاه من أسباب، المؤمن يتعب ويشتغل ويجيب أكل وياكل وبعد ما يخلص أكل يقول: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة. المؤمن يعترف أنه لم يكن ليحدث له شيء إلا بفضل الله، ولذلك الفقير المؤمن قال لصاحب الجنتين الكافر: "وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ" الكهف:٣٩، يعني إيه ما شاء الله لا قوة إلا بالله؟ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، يعني ربنا شاء إن ده يحصل، إن الجنتين دول يبقوا موجودين، لو شاء الله إن أمطار تنزل ويبقى ما عندك زرع وبرضه ميبقاش فيه جنة؛ لحدث. ما يشاؤه الله يكون، ما شاء الله، هتقولي بس أنا تعبت هاقول لك القوة اللي عندك دي جات من عند ربنا، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لذلك الفرق بين كلمة



صاحب الجنتين لما قال أنا تعبت فيها ودي بتاعتي وده شغلي وقال: "مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا" لا يمكن تسقط أبدا، وبين ذو القرنين في نفس القصة، لما بنى السد، هو تعب وقال لهم أعينوني بقوة وفكر وخطط وعمل، حط النحاس مع الحديد، وفي الآخر يقول إيه؟ "هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي" طب هيفضل على طول؟ لا، "فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا" الكهف:٩٨. يعني ماقلش "مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا". ده الفارق إن المؤمن مهما كان معاه من أسباب هو لا يطمئن إلا بالله، مش بيطمئن بالأسباب أبدًا، عارف إن الأسباب ممكن تروح وتيجي في لحظة.

النبي –صلى الله عليه وسلم– أخد بكل الأسباب في الهجرة، وحد معاه للطريق حتى لو كان كافر، وحد بيمحوا الآثار، وحد بيجيب له الطعام، وبالرغم من كل ده لقى المشركون فوقهم في الجبل، لكن لم يهتز يقينه ولم يتأثر فقال يا أبا بكرٍ "ما ظَنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهُما"[3]، لإنه هو من الأول مش مطمئن بالأسباب هو مطمئن بالله، لكن يأخذ بالأسباب طاعة وعبودية لله.

فربنا بيخبر إن فيه ناس، الأسباب بتخليها تطغى، الأموال بتخليها تطغى، ذات العماد أو الصخر بالواد أو ذي الأوتاد، ومش بس إن هو بيُفسد في الأرض، ده بيطغى على اللي بيقول له كلمة الحق ويعذبه، ذِي الْأَوْتَادِ، زي ما قولنا فرعون كان بيضرب الوتد في الإيد وفي الرجل، في أربع، الإيدين والرجلين، ويعذبه حتى يموت، أو الجنود اللي كانت بتستعمل أدوات التعذيب، أو المباني الشاهقة اللي كانوا بيتخذوها للعب وللهو، "وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ"

يبقى قولنا:

١– السيطرة على الأسباب

٢– الاستغناء

٣– الطغيان

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، معدش حد بيقوله لا، معدتش حد بيقوله حرام، مفيش حد بيقوله أي حاجة "بَلْ يُرِيدُ الإنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ" القيامة:٥، لما بيطغى، ما هو الطغيان تجاوز الحد "كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ –امتى الإنسان بيطغى– أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ" العلق٦:٧، حينما يرى نفسه مستغنيًا، يقولك ماخلاص مش عايز ربنا في حاجة –والعياذ بالله–. وهو الملحد أصلا –من كلام الملحدين– يقولك: هو إنتوا محتاجين ربنا في إيه –والعياذ بالله–؟ إحنا مش محتاجين ربنا في حاجة. "وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا".

"الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ" وكلمة في: عمق الطغيان، في كل البلد، يعني أصبح عايز يطغى على البلد كلها ويسيطر عليها كلها.

"الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ" مش فأفسدوا، لا، أكثروا فيها الفساد –والعياذ بالله–، زي مانقول خلاص الإنسان لما بيطغى مفيش حاجة بتوقفه، حينما يغيب ذكر الدار الآخرة عنهم؛ يطغى ويفسد.

فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ النتيجة إيه؟ "فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ" هيروحوا فين من ربنا، يعني اللي مغتر بذات العماد أو الصخر اللي بالواد أو ذي الأوتاد، اللي مغتر بقنابل نووية، اللي مغتر بجنود، اللي مغتر بالقصور، اللي عمال يطغى ويظلم في الناس، ويعذب في الناس، هو هيروح من ربنا فين؟ الموضوع كله ببساطة "فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ" كل ده راح، زي ما يكون حاجة بس اتصبت عليهم وخلصوا، وانتهوا من الحياة "هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا" مريم:٩٨، خلصوا، لذلك كلمة فصب: أي العذاب متتابع متتالي. انت لما بتيجي تصب حاجة بتنزل ورا بعضها، أنزل الله –عزَّ وجلّ– عليهم عذابًا متتاليا.

---

[3] صحيح البخاري



كلمة "سَوْطَ عَذَابٍ" ليه كلمة سوط دي؟ العلماء بيقولوا فيها: يعني كمجموع كلام المفسرين قالوا فيها تلات معاني:

المعنى الأول: الألم، السوط يعني عذاب إيه؟ مؤلم، أليم زي ضربة السوط كدا، يعني مش بس عذاب إهلاك، لا، يتألم وبعدين يموت، والعياذ بالله، لإنه كان بيجعل الناس تتألم، كان بيطغى على الناس، ويعذب الناس، فالعقاب بتاعه لازم يكون فيه ألم، فقالوا السوط: الألم.

أيضا السوط فيه معنى السرعة الخاطفة، في لحظة ينتهي، السوط ضربة سريعة.

يبقى الألم، السرعة

المعنى التالت في معنى كلمة سوط، قالوا إن السوط أصلا لغة: هو مزيج من الضفاير ملفوف كدا يكون السوط، فقالوا السوط أصلا فيه معنى المزج والخلط، فقالوا السوط أي مزيج من العذاب، مش عذاب واحد، يعني ممكن يبقى تخويف وبعدين حجارة وبعدين إهلاك، ممكن ربنا ينوع، "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ" الأعراف:١٣٣، ممكن ينوع عليهم في العذاب.

يبقى السوط فيه معنى الألم، السرعة، التنويع.

وبعض المفسرين زي الزمخشري قال: كل ما حدث لهم في الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كضربة سوط. يعني شوف عذاب مثلا "سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا" أو إغراق أو إهلاك أو حجارة، إنت لما تشوف العذاب في الدنيا، كأنهم مثلا أعجاز نخل خاوية، عذاب فظيع، فيقولك كل ده بالنسبة للي هيشوفه في الآخرة زي ما يكون انضرب ضربة واحدة بس، ولسه العذاب مدخر له في الآخرة. فَصَبَّ العذاب متتالي، سَوْطَ الألم السرعة التنوع، ويبقى له في الآخرة أضعاف أضعاف ما لقاه في الدنيا، "سَوْطَ عَذَابٍ".

"إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ" يعني إيه إن ربك لبالمرصاد؟ حينما يطول ظلم الظالم قد ييأس الناس ويشك بعض الناس في قدرة الله، فيخبرك الله –عزَّ وجلّ– أنه له بالمرصاد، وأن المدة التي طغى فيها قوم عاد وطغى فيها قوم ثمود، وطغى فيها فرعون وجنوده، لم يكن الله –عزَّ وجلّ– بغافل عنهم ولكن كان لهم بالمرصاد، بالتأكيد إن ربك الذي رباك بنعمه لم ينسى ولن ينساهم، إنه يُمهل لهم ولا يُهملهم، إن ربك لبالمرصاد.

الرَصَدْ لغة: لما الأسد بيسيب فريسة تفضل تقرب تقرب ويحفر لها حفرة وتقرب منها ثم يفترسها في لحظة معينة، والفريسة في غفلة، ولله المثل الأعلى، بيظل الظالم يظلم ويظلم ويظلم ويعلو ويعلو حتى حينما يسقط يكون سقوطه أبين للناس. كتير من الناس بيستعجل على عقوبة الظالم، عايز أول لما الظالم يظلم ينزل عليه العذاب، لا، لله –عزَّ وجلّ– حكم كثيرة في تأخير نزول العقوبة على الظالمين، لكن اللي إحنا موقنين منه إن ربنا بالمرصاد، وإن مفيش حاجة بتروح، إما في الدنيا أو في الآخرة، ده لازم يبقى يقين عند المؤمن "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ" إبراهيم٤٢:٤٣.

أوعى تفتكر إن معنى تأخر نزول العذاب؛ إن الموضوع خلص، لا، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ، تأكيد إن واللام، لبالمرصاد، وكأن عقوبة الله –عزَّ وجلّ– مُقيمة تنتظرهم، تنتظر لحظة الأمر من الله "فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ" يونس:١٠٢، في لحظة معينة هينزل العذاب، يُقررها الله، الله لا يعجل بعجلة أحد، بعض أهل الإيمان يستعجل.

وقال النبي –صلى الله عليه وسلم– ذلك لخباب "ولكنكم تستعجلون" ألا تدعو لنا ألا تستنصر لنا؟ مستعجل سيدنا خباب، عايز عشان سنتين تلاتة تعذيب في مكة، كفاية، لله حكم قد يتأخر النصر، قد يظل سنوات الظالم يظلم لكن إن ربنا له لبالمرصاد، ده يقين، مفيش حاجة بتعدي أبدا.

وقيل لَبِالْمِرْصَادِ: أي عقوبة ربنا بتنتظره على جسر على جهنم، لن يمر من عليها سيسقط سيسقط، اللي ظلم الناس سيسقط حتما "يا عِبَادِي إِنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا"[٤]، الظالم لازم هيسقط في جهنم –والعياذ بالله– نعوذ بالله من الظلم.

"الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ"

ده يعتبر زي الجزء التاني من السورة، يعني وحتى لما تيجي تقرأ "إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ" وكأن الآية بتقولك أو الآيتين وراء بعض، ربنا بالمرصاد للإنسان والإنسان في غفلة، عمال مشغول بالفلوس، بالرغم إن ربنا له لبالمرصاد، والعقوبة منتظراه وهو كل اللي شغله هتديني فلوس ولا مش هتديني فلوس يا رب، ادتني فلوس؛ آه الدين ده كويس. مجاليش فلوس؛ لا الدين ده وحش "رَبِّي أَهَانَنِ" بالرغم إن ربنا له لبالمرصاد.

الجزء هنا بيتكلم عن عقيدة ضالة عند الناس اللي بيفسر كل حاجة بالفلوس، التفسير المادي لكل حاجة في الحياة، فلان معاه عربية كويسة يبقى فلان ربنا بيحبه، فلان كسب فلوس يبقى فلان ربنا بيحبه، فلان خسر فلوس يبقى فلان ربنا مبيحبوش، فلان تعب، ومرض، يبقى فلان ربنا مبيحبوش، بيقيس محبة الله على الدنيا، ولا علاقة، إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وإن الدنيا عند الله لا تساوي جناح بعوضة، مفيش حاجة تساوي عند ربنا، الدنيا لا تساوي شيء عند ربنا، لذلك لما مرض أيوب ومكث في بلائه ثمانية عشر عاما فلفظه القريب والبعيد إلا رجلين فقال أحدهما للآخر: والله ما أظن إلا أن أيوب أذنب ذنبا لم يذنبه أحد من العالمين. شوف طالما تعبان يبقى عمل ذنب، مش لازم، مش لازم، ممكن يبقى ابتلاء فقط، مش لازم الفقر معناه علامة عدم الرضا، والغنى علامة الرضا، طريقة تفكير عند الناس غلط، فربنا بيصلحها، عشان محدش يقول يا ليت لنا مثل ما أتي فرعون، يا ليت لنا مثل ما أوتي عاد، قوم عاد، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، دول ربنا صب عليهم سوط عذاب ولم ينفعهم ذلك، لذلك لما قالوا "يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ" القصص:٧٩، اللي عندهم علم ويقين قالولهم ويلكم بتقولوا ايه؟! عايز تبقى زي قارون الظالم الطاغية، "وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ" دي فتنة عايزه صبر.

"فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ" خد بالك من ابتلاه في الآيتين، "فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ" و "وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ"، يبقى في الحالتين ابتلاء، فلوس ابتلاء فقر ابتلاء، الغنى ابتلاء والفقر ابتلاء، الحالتين اختبار "وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً" الأنبياء:٣٥.

"فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ" فقدر: أي ضيق "فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ *كَلَّا" دي طريقة تفكير غلط، زي ما قولنا كتير من الناس دايما عايز يعرف يقولك: ربنا بيحبني ولا لا، ده أنا ربنا بيحبني جدا، ليه؟ أصل أنا معايا فلوس كتير. لا دي مش علامة حب، هذه ليست علامة حب، الإنسان من كتر حبه للدنيا بيفسر بيها كل حاجة في الحياة، وكان المشركين يقولك إحنا معانا، "نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا" سبأ:٣٥، فبالتالي عايزين إيه يعني؟ "وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ"، إيه علاقة إن إنتوا أكثر أموالا وأولادا بما نحن بمعذبين!! في سورة سبأ "وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ"، سورة مريم "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ" أهو رايح تقوله ربنا بيقول كذا وكذا يرد عليك يقولك إيه "قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا" إحنا معانا فلوس كتير والمكان بتاعنا أحسن من المكان بتاعكوا، إيه علاقة ده باللي أنا بقولهولك؟ أنا بقولك ربنا هيعذب الظالم، وفيه جنة وفيه نار. يقولك أنا معايا فلوس كتير. طب وإيه علاقة اللي أنا بقولهولك بإن انت معاك فلوس كتير. برضه رايح تكلم عاد فيقولوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً،

---
[٤] صحيح مسلم



إحنا أقوياء، برضه إيه علاقة ده باللي أنا بقولهولك!؟ هي الناس عندها خلط بين إنه عنده فلوس كتير وبإنه مش هيعذب، لا، مش معنى إنك انت معاك فلوس إن ربنا أكرمك، ولو ماعكش فلوس إن ربنا أهانك، لذلك قال "كَلَّا".

في الآيتين قال: "ابْتَلَاهُ" "فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ" بعض المفسرين قال: طب ما ربنا قال إن هو أكرمه، لما هو قال ربي أكرمن ربنا قال كلا، معايا في الاستفسار؟ أو في الاستشكال؟ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فإيه؟ أكرمه، ربنا بيقول إن هو أكرمه أهو. لما هو قال رَبِّي أَكْرَمَنِ ربنا قال لا كلامه غلط. ليه كلامه غلط؟ لإنه بيقول ربي أكرمن على إن دي النتيجة مش الابتلاء، كان المفروض يقول ربي ابتلاني فأكرمني لينظر أأشكر أم أكفر. لكن هو مقلش كدا، هو بيتكلم إن ربي أكرمني إن ده النتيجة، مش إن ده الاختبار، هو بيتحدث عن النتيجة مش على الاختبار، وربنا بيقول إن الاختبار إني أكرمتك. إن أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرد. انت أكرمت اللئيم فكانت النتيجة إنه تمرد، مش أكرمته لأنه يستحق، معايا؟

"وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ" أي ضيق، وفيه معنى ذكره بعض المفسرين قدر عليه رزقه أي أعطاه على قدر حاجته فقط، بعضهم قال إن المعنى ده ماشي مع قراءة "قَدَّرَ عليه رزقه"، وإن كان الأشهر والأغلب إن معناه ضيق، لكن حتى بعض الناس لو جاله اللي على قدر الحاجة فقط برضه زعلان، عايز بزيادة.

رَبِّي أَهَانَنِ، فربنا بيقول كَلَّا، طريقة التفكير دي غلط، "بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ"، إيه علاقة الآيتين دول بـ "كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" كأن ربنا بيقول لهم، إنتوا لما تحبوا تكرموا حد تدوله فلوس، ولما تحبوا تهينوا حد متدلوش فلوس، لكن دي مش معاملتي أنا؛ دي معاملتكم انتوا، معاملتي أنا لما أُكرم حد أوفقه للطاعة، والإهانة أنه لا يوفق للطاعة، لكن أنتم لأنكم تحبون الدنيا، وتحبون المال حبا جما، هذه طريقة معاملتكم.

كنا بنقول إيه العلاقة بين قول الله –عزَّ وجلّ– "كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" وبين تصحيح المعتقد اللي بيفسر كل شيء بالتفسير المادي، فيقول الله –عزَّ وجلّ– بل أنتم لأنكم تحبون المال هذه هي طريقة إكرامكم وإهانتكم للناس، أما الملك –سبحانه وتعالى– حينما يكرم يُكرم بالطاعة، وليس بالدنيا، الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأنتم تفعلون ذلك بالناس، الإكرام والإهانة، لا تفعلون ذلك بمقتضى العدل، ولكن تفعلون ذلك بمقتضى القوة، فحينما لا تكرمون؛ لا تكرمون اليتيم لإنه ليس له قوة تدافع عنه، أمّا الله –عزَّ وجلّ– يوفق الذي يستحق للطاعة، لإنه أهل لها، وهي من فضله وكرمه –سبحانه وتعالى–.

إذًا أفعال الله –عزَّ وجلّ– الله لا يظلم أحدا، لكن أنتم تظلمون، وإن الابتلاءات التي يفعلها الله –عزَّ وجلّ– من إعطاء المال أو المنع لحكمة، أمّا أنتم لا تفعلون ذلك لحكمة، أنتم تفعلون ذلك بمقتضى القوة، والظلم، ولكن الله يفعل ذلك بمقتضى الحكمة والرحمة واللطف –سبحانه وتعالى–.

بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، إن ده الفارق الرهيب بين معاملة الناس لبعضها ومعاملة ربنا للناس، وإن اللي خلى الناس تتعامل كدا الحب الشديد للمال، "وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا"

بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ بعض العلماء قال: إن العلاقة بين الآيتين دول، إن هو زعلان إن ربنا مبيدلوش فلوس ولما ربنا بيديله فلوس مبيديش هو لحد فلوس، كلا بل لا تكرمون اليتيم، يعني انت عمال تقول رَبِّي أَهَانَنِ ولما ربنا بيديلك الفلوس، أنت تمنع عن الشكر وتمنع أموالك عن الناس، والأموال دي ربنا اللي ادهالك، ولا تُعطيها لمن يستحقها، لليتيم.

وقال بعض أهل العلم وإن كان ده قول يعتبر ضعيف: إن المقصد هنا باليتيم النبي –صلى الله عليه وسلم– كلا بل لا تكرمون اليتيم، وإن انتوا يعني تفعلون أفعال الطغيان زي فرعون وثمود وعاد، وتمنعون الناس عن الطاعة فسوف يعذبكم الله –عزَّ وجلّ–.

"كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ" وبعض أهل العلم قال أيضا: الوجه المناسب الرابع، كلا بل لا تكرمون اليتيم، لم تكتفوا بالقول وبسوء القول وضممتم إليه سوء العمل، فكان سوء قولهم رَبِّي أَهَانَنِ، وكان سوء فعلهم لا يكرمون اليتيم.

"كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ" وهو يستحق الإكرام، "وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ"، مقالش ولا تطعمون المسكين، قال ولا تحاضون، طب ليه قال ولا تحاضون على طعام المسكين؟ عشان أكتر من حاجة:

الشيء الأول: إن المجتمع لازم فيه تكافل، حتى لو مش هتنفق، تدعو الناس للإنفاق، فكلمة لا تحاضون إن لازم الكل يُشارك في الإطعام للمساكين، إن لم يشارك بالبذل فيشارك بالقول، والدال على الخير كفاعله.

الشيء التاني: لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين، بلغت القسوة في قلوبهم أنه لا ينفق ولا يستطيع حتى أن يدعو إلى الإنفاق، يعني فيه واحد بلغت قسوة قلبه، أنه لا يستطيع أن ينفق، ومش قادر حتى يقول للناس أنفقوا، مش قادرة تطلع من بقه، مش قادر يقولها، حاسس إن هو كدا يعني هيبقى كريم قوى لو قال للناس أنفقوا، لا يدل الناس على الخير، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، ومش بس مبيديش ده كمان بياكل حقوق الناس، مش بس مبيكرمش اليتيم، ده بياكل حق اليتيم.

"وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا" التراث: أي الميراث، بياكل ورث غيره، بياكل ورث اليتيم، بياكل ورث المرأة، ورث الأطفال، لذلك أَكْلًا لَمًّا يعني إيه؟ قالوا اللَّم بمعني السف، عارف اللي بيسف حاجة، وقالوا لَمًّا: الذي يأخذ المال الذي يجده، ولا يسأل أحلال أم حرام، بيلم كل حاجة، عارف زي اللي ماشي بيلم أي حاجة بتقابله، هو تأكلون التراث أكلا لما، أي فلوس قدامه بياخدها، بتاعت يتيم، بتاعت مسكين، بتاعت امرأة، ورث واحد، هو بياخد الفلوس وخلاص، هو كل همه جمع المال، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا، الذي يجمع المال ولا يبالي من حلال أم من حرام، بيلم أي حاجة بتقابله، ليه بيعمل كدا؟ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا، البئر لما بتتملى بالمايه بتجم جم، بئر جموم، فحبا جما يعني امتلأ قلبه بحب المال، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا.

فيقول الله –عزَّ وجلّ– كَلَّا، لن تنفعكم هذه الأموال وستنقلب هذه الأحوال وستذهب هذه الأموال، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم: "تَقِيءُ الأَرْضُ أفْلاذَ كَبِدِها، أمْثالَ الأُسْطُوانِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ –الأرض هتقيء وتخرج الكنوز اللي بداخلها يوم القيامة– قال: فيجيءُ السَّارِقُ فيقولُ: في هذا قُطِعْتُ ويجيءُ القاتِلُ فيقولُ: في هذا قتَلْتُ ويجيءُ القاطعُ فيقولُ: في هذا قطَعْتُ رحِمِي ويدَعونَه لا يأخُذونَ منه شيئًا"[٥] كل ده مش هينفع.

"كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا" النقلة ما بين الغفلة، واقع الغفلة وواقع حب المال إلى مشهد يوم القيامة، نقلة تجعل الإنسان يفيق من هذه الغفلة، دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ، مشهد مهيب جدا –سبحان الملك– يجيء الرب حقيقةً، مجيئًا يليق بجلال وجهه –سبحانه وتعالى–، جاء لفصل القضاء، لا نعلم كيف، وَجَاءَ رَبُّكَ، ومشهد والملَك، الملائكة بقى صفا صفا، مشهد عجيب، مشهد عظيم، ولفظة وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ، هذا المشهد المهيب، كأنه بعد أن زالت الملوك الواهية، مُلك فرعون وعاد وثمود، كل هذه الملوك زالت ولم يبقى إلا المُلك الحقيقي لله –سبحانه وتعالى– "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ .." غافر:١٦، فيأتي الملِك –سبحانه وتعالى– ويأتي الملَك صفا صفا، "وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا"

---

[٥] صحيح ابن حبان



وكأنه قبل أن يبدأ الحساب ظهرت العقوبة حتى يخاف الناس "وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ" عارف ولله المثل الأعلى، لما مدرس يدخل الفصل بس الفصل ده مشاغبين، فأول حاجة بيعملها إنه بيطلع العصاية، قبل ما بيسأل، لأنه الفصل ده غالبه كدا، فلله المثل الأعلى، "وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ" جاء بها الله، "تأتي جهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك" كأنه وحش مفترس عايز يثور ويأكل "تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ" الملك:٨، بتتقطع عايزة تشوف إيه بس الكفار دول وتلتهمهم –والعياذ بالله–.

"وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ" أول لما الإنسان يشوف جهنم لسه محدش قاله حاجة، يعني شوف اقرأ الآية "وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ" لسه محدش حاسبه ولا الصحف، هو بيعرف إنه كان غلطان، كتير من الناس اللي بتقعد تجادل هي عارفة إن هي حرام، الحاجة اللي بتعملها حرام، طب وإيه الدليل، مش الكل طبعا، لكن غالب النقاشات هو بس مش متذكر ومش مستحضر العذاب الأخروي، فالحل معاه في الوعظ مش في الأدلة، فيه ناس بتبحث عن الدليل فعلا، لكن غالب اللي بيجادل هو بيجادل لإنه عايز يريح نفسيته، عايز ضميره ميأنبوش، عايز يهرب من النفس اللوامة، عايز يفجر أمامه.

"يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى" هو معنى الآية يعني هو هيتذكر ولا مش هيتذكر؟ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، أي وكيف يستطيع الذكرى، أي وأنّى له أن ينتفع بالذكرى، زي وأنّى له التوبة يعني، يعني يومئذ يتذكر الإنسان ولكن بعد إيه، وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، وكيف تنفعك الذكرى في هذا الوقت، خلاص، لات حين مناص، أي ليس هذا الوقت وقت الفرار والندم، انتهى ده كان في الدنيا، وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، أي ولن تنفعك الذكرى.

يقول في ساعتها لما يعرف إن التوبة بتاعته مش هتنفعه "يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي" الحياة الآخرة، عرف إن الحياة الحقيقة في الآخرة مش في الحياة الدنيا، عرف إن كل الأسباب ذات العماد والصخر بالواد وذي الأوتاد ماكنش ليها قيمة، وأن الحياة الحقيقة في الآخرة "وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ" أي الحياة الحقيقية، الحياة الكاملة، يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي، ياريتني كنت عملت أعمال صالحة تنفعني بعد الموت، هذه الحقيقة اللي بتغيب عن ذاكرتنا، الموت "إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ" شوف كلمة تَفِرُّونَ، كأننا نفر من ذكره، وهو حقيقة لابد لنا منها.

"فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ" جمهور القراء على إن القراءة زي حفص كدا "لَا يُعَذِّبُ" "وَلَا يُوثِقُ" فيه قراءة "لَا يُعَذَّبُ". نقول الأول بتاعتنا يعني إيه "لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ" هما مختلفين في هاء عذابَهُ، الهاء دي بتعود على مين؟ هل على الأحد ده ولا على ربنا؟ نقول الأول قراءة حفص وإن الهاء دي بتعود على الله، يبقى معنى الآية لا يُعذِّبُ الله –عزَّ وجلّ– هذا الإنسان مثل عذابه أحد، بمعنى لا يستطيع أحد أن يُعذب مثل عذاب الله، ولا يوثق وثاقه أحد، لا يستطيع أحد أن يوثق مثل وثاق اللي ربنا بيعمله، بمعنى مهما بلغ الطغيان في الدنيا وحاولوا يعذبوا الناس، تعذيب ربنا لهؤلاء الطغاة أعظم بكثير، لذلك ربنا بيخبر عن بعض الناس اللي فتنوا، إن كان سبب فتنتهم أنهم إيه؟ جعلوا فتنة الناس كعذاب الله "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ" دي العنكبوت:١٠، التانية في الشعراء:٩٨ "تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ". فيخبر الله مش بقى عذاب ذي الأوتاد زي بتاع فرعون لما كان بيعذب الناس، لا، عذاب الله مختلف تماما، لا يُتَصَور، لا يعذب عذابه أحد. أو لا يقوم بالتعذيب في هذا الوقت إلا الله، الكل خلاص ملكه بيروح، ولا يقرر العذاب إلا الملك –سبحانه وتعالى–، ده لو الهاء بتعود على الله.

طب لو الهاء بتعود على الكافر هنا، إن معنى الآية لا يعذب عذابه أحد، أي أن الله –عزَّ وجلّ– يخص بعض الناس بعذابٍ مخصوص لا يعذبه أحدا من العالمين، زي ما قال قبل كدا "فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ" المائدة:١١٥، ويروى عن عمرو بن العاص، وإن كان

أثر بعضهم ضعفه، إن أشد الناس عذابا ثلاثة: فرعون وأصحاب المائدة والمنافقون اللي صلوا خلف النبي –صلى الله عليه وسلم–. لإن التلاتة ظهرت لهم الآيات واضحات ثم أصروا على الكفر "وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ" طه:٥٦، فرعون، والمائدة على القول إنها نزلت وأكلوا منها ثم كفروا بها، والمنافقين أيقنوا أنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثم كفروا به. يبقى فيه ناس يخصهم الله بعذاب أشد أنواع العذاب. وقيل إن أشد أنواع العذاب المقصود في السورة الذي يظلم الناس ويطغى ويعذب الناس ولا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، اللي بيبذل القوة في تعذيب الناس وفي عدم إكرام اليتيم وفي ظلم والناس له عذاب مخصوص محدش هيتعذب زيه.

قال النبي –صلى الله عليه وسلم– "يحشر المتكبرون أمثال الذر يوم القيامة" زي النمل "يطؤهم الناس بأقدامهم"[٦] لإنه كان متكبر، فيبقى زي النملة الناس تدوس عليه، زي ما كان ماشي بيدوس على الناس في الدنيا، الناس هتدوس عليه في الآخرة.

يبقى لو قلنا القول التاني إن عذابهُ، الهاء دي تعود على الشخص، إن هناك أناس لهم عذاب مخصوص، زي أحد الأقوال في قول الله –عزَّ وجلّ– هتجيلنا إن شاء الله في سورة الهمزة "إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ" قالوا مقفول عليهم سجون معينة للي كانوا بيسخروا من الناس، دول لهم عذاب مخصوص اللي بيتريقوا على الناس دول، لهم عذاب مخصوص في جهنم، كما إن فيه بعض أصناف النعيم مخصوصة لبعض أصحاب الطاعات كذلك فيه أنواع من العذاب مخصوصة لأصحاب المعاصي والظلم –والعياذ بالله–. وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ.

ثم الختام هذا النداء الذي ينتظره كل مؤمن، هذا النداء اللي بيدخل السعادة على المؤمن، هذا النداء اللي بيحول الموت إلى لذة، الموت بالنسبة للمؤمن له نظرة مختلفة، الناس بتخاف من الموت، وبتترعب، وبتفزع، المؤمن بالنسبة له الموت هو متعة الوصول زي ما الدكتور فريد الأنصاري بيقول، متعة الوصول يعني إيه متعة الوصول؟ لما تبقى راكب قطر مثلا أو جاي سفر طويل، واحد رايح يعمل عمرة مثلا، ومسافر سفر بري طويل، أيام وليالي، وقارب الوصول، قلبه يبدأ يدق، الموت هو متعة الوصول للقاء الله، لما تقرأ الحديث؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– بيقول: "مَن قرأَ آيةَ الكرسيِّ دُبَرَ كُلِّ صلاةٍ؛ لَم يَمنعْه مِن دخولِ الجنَّةِ إلَّا أن يَموتَ"[٧]. لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية دايما يحافظ على آية الكرسي ويتذكر هذا الحديث. من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، لما واحد يسمع الحديث ده يعني يقول يعني المانع بيني وبين دخول الجنة الموت ياريتني أموت، والأثار كثيرة عن السلف في ذلك.

الشاهد إن هذا النداء وتتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا بشريات. يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ربنا يوعدنا يا رب، يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، هنا ليه ذكرت المطمئنة؟ التي اطمأنت بالطاعات، بصلاة الفجر وليال عشر وأنواع الطاعات الشفع والوتر، وأقامت الليل والليل إذا يسر، لم تطمئن بذات العماد ولا بذي الأوتاد ولا الصخر بالواد. اطمأنت بوعد الله وخافت من موعود الله، يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي –بعد التعب بقى اللي انتِ تعبتيه في الدنيا– إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، بعض المفسرين قال ادخلي في عبادي ربنا بيخاطب النفس أن تدخل في العبد يعني ترجع له تاني، يعني الروح ترجع له تاني. وقيل ادخلي في عبادي: أي ادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وأنا أميل لهذا. ادخلي في عبادي أي في زمرة العباد الصالحين، خشي مع أصحابك الصالحين، زي ما انت بتقول "وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" النمل:١٩، إنك تبقى وسط زمرة الصالحين، لما في الآخر الناس هتبقى زمرا، الذين كفروا زمرا وأهل الجنة زمرا، في أي زمرة ستكون؟! فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي.



[٦] روايات الحديث هنا

[٧] صحيح الترغيب



نداء تختم به السورة يسكب الطمأنينة على أهل صلاة الفجر أهل الليالي العشر أهل الشفع والوتر أهل الليل الذين ساروا فيه وكانوا يسرون فيه بالطاعات، لم يطمئنوا بالأسباب ولكن اطمأنوا برب الأسباب، اطمأنوا بالملك –سبحانه وتعالى–.

إذًا كملخص عام لهذه السورة: أن هناك أزمنة شرفها الله، يستغلها المؤمن بالطاعات، هذه الأزمنة هي التي تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، هناك صنف من الناس أعطاه الله الأسباب، زي ذات العماد أو الصخر بالواد أو ذي الأوتاد، هذه الأسباب جعلته يطغى، فلما طغى أكثر فيها الفساد، ولما أكثر الفساد وكان مسيطر على الأسباب اعتقد واهمًا إن كده ربنا بيحبه، وإن زي ما له مال وبنين في الدنيا هيكون له مال وبنين في الآخرة، بيقيس مقاييس الآخرة على مقاييس الدنيا، فأخبره الله –عزَّ وجلّ– إن ده طريقة تفكير ضالة لا يفكر بها إلا الذي يحب المال حبا جما، والذي يأكل الميراث من حلال أو من حرام، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا، وهذه الموازين ستنقلب وتظهر الحقيقة إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وهؤلاء الذين ظلموا الناس وعذبوهم لهم عذاب مخصوص يوم القيامة، وكما عذبوا الناس يعذبهم الله عذابًا لا يعذبه أحدا من العالمين، ثم تختم السورة بنداء يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، نسأل الله –عزَّ وجلّ– أن يجعلنا من الذين اطمأنوا بطاعة الله –عزَّ وجلّ– وأن يرزقنا حسن الخاتمة.
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك